من يملك الشارع..؟!

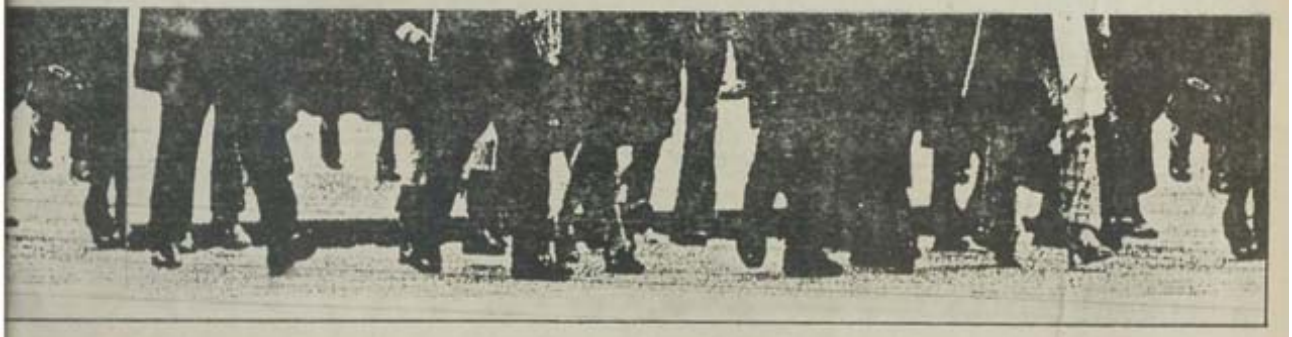

د. حسين مؤنس

التحرير

هذه القاهرة ينبغى أن تكون «سيتى» أو مركز أعمال. إن نجاح الانفتاح كله ومصير النهضة الواسعة التى نقوم بها اليوم مرهون بسلامة القاهرة، لأنها القلب ومركز الشرايين، وهى مع الأسف مصابة بتصلب شرايين حاد، ونحن المسئولون عنه، وبدلا من أن نجعلها مدينة أعمال نجعلها مرتزقا لبياع البطاطا وصاحب كشك السجائر وصاحب مرجيحة العيال.

كل شبر من الأرض هنا له ثمن، حتى الهواء فوق المبنى أو بين المبنيين يباع ويشترى، وهناك ناس كثيرون يشترون الهواء من صاحب البيت ويبنون فيه، ويعتبرون هذا ملكا.

وهناك ناس يشترون أراضى الصحراء على مسافات من المدن ويقسمونها قطعا ويعرضونها للبيع أو ينتظرون حتى يقترب منها العمران، ربما بعد خمسين سنة، ليقوم أولادهم ببيعها قطعا ويكسبون الألوف بعد عمر طويل..

وأسعار الأراضى داخل المدن تقترب شيئا فشيئا من أسعار الذهب، وأى إنسان ينشىء شيئا من خشب له جدران أربعة ويسميه محلا، يستطيع أن يأخذ فيه بضعة ألوف «خلو رجل» ليتركه لغيره، وهناك صعاليك حفاة دقوا مسمارين على جدار بين دكانين، وعلقوا دولابا يبيعون فيه السجائر أو أربطة الأحذية ويسمون هذا الدولاب متجرا ويطالبون تعلات الجنيهات ليتنازلوا عن المسمارين والدولاب «لتاجر» آخر. إلا الشارع أو الطريق العام أيا كان اسمه فهذا لا صاحب له، ومن هنا فلا ثمن له. فى الشارع أو الحارة أو الزقاق يستطيع أى إنسان أن يفعل ما يريد كيفما يريد، ولا أحد يستطيع الاعتراض. لأن العرف الجارى أن الشارع لا صاحب له، وأى عصرى أو فاكهى أو بقال اكترى دكانا مثلين فى الشهر أيام زمان يضع يده على الرصيف أمامه ويمد أقفاصه وصناديقه عليه ويحرم على الناس المرور عليه، لأنه أصبح ملكه بوضع اليد، ووضع اليد له عندنا – لا تدرى كيف – وضع القانون. وهناك ألوف من العاملين فى إصلاح السيارات يستأجرون دكانا مثلا فى مثر، ثم يحتلون الشارع كله ويرصون السيارات من الرصيف إلى الرصيف، ويرون ذلك حقا لهم، بل إن من حقهم أن يطرقوا ويسمكروا ويطلقوا الجن الأحمر من نومه دون أن يكون لأى ساكن فوقهم الحق فى رجائهم شيئا من الهدوء ليعمل أو يستريح، لأنهم هم وحدهم أصحاب الحق فى راحة الناس أو عدم راحتهم.

وليس فى مدننا كلها، وخاصة القاهرة، قطعة رصيف أو ناصية شارع أو حارة إلا احتلها أو احتله إنسان يبيع خضارا أو فاكهة أو أى شىء، وهؤلاء المحتلون يحتكرون ما يشاءون من مساحة الشارع، الرصيف وغير الرصيف، ويرغمون الناس على أن يهبطوا إلى أرض الشارع بعيدا عن منطقة احتكارهم ونفوذهم، وعلى السيارات جميعا أن تحترم «حق» هذا الإنسان على ما وضع عليه أقفاصه من أرض، وتدور حول الأقفاص، وحذار أن تمس قفصا باليا منها لا يحسب إلا فى القمامات، لأن هذا الرجل أصبح «بالعافية» صاحب حق على ما يشاء من الطريق العام، وله الحق فى أن يعذب الناس جميعا لكى يبيع ما يشاء من البطاطا والخواجة والخميز، ومن حق هذا الرجل أيضا أن يأتى بامرأته وأولاده ليحتلوا مساحات أخرى من الرصيف، ويأتى المرأة بباور الجاز والخلة وجردل ماء لونه لون الضباب لتطبخ لزوجها الشقيان النعمان، والأولاد يلعبون على الرصيف، وينامون، والزوج «النعمان الشقيان» يتحول مع الزمن إلى تاجر من الأعيان، ويأتى بالكراسى ليدخن الناركيلة مع الإخوان، ويصفق يطلب القهوة والشاى و«الولعة» من القهوجى شعبان بن رمضان، وليس لأحد فى الدنيا حق فى المساس به أو بأسرته الكريمة، لأنه – مهما جمع من مال كثير – يقول إنه رجل غلبان وشقيان ونعمان.

أحيانا يتحول هذا الاحتلال إلى حق مكسوب هو أقوى من حق الملكية القانونية ، لأن الملكية لها حدود ثابتة فى أوراق ، أما وضع اليد فلا أوراق له ، ومن ثم لا يعرف الحدود .

فعرية اليد تظل مكانها على ناصية الشارع بالنهار والليل ، وقطعة الرصيف بين العربة وركن الشارع تحولت إلى مسكن شرعى . فيها وأمير الجار والخلة والخردل المملوء ماء بلون القطران ، وهنا ينام ولد أو أكثر وقد أحاطوا أنفسهم ومتاعهم بحصير .

وفى أحيان كثيرة يأتى إنسان آخر ويبنى لنفسه متجرا ومسكنا آخر من هذا الطراز ، ويحدث ذلك ثالث ورابع حتى يتلاشى الشارع كله .

وهؤلاء « العلاية » الذين يحتلون الشوارع ويحيلونها إلى مزابل ، يرغبون أرباحا تستطيع أن تقول إنها طائلة ، ولكنهم لا يدفعون مليما ضرائب لأنهم فيما يزعمون « علاية » ومساكين ، ولو كانت الضرائب تؤخذ حقا على صافى الربح لدفع أولئك الناس أضعاف ما ندفع نحن « العلاية » الحقيقيين ، ونحن والله مغلوبون ، فنحن على قلة ما نكسب محسوبون فى سجلات الضرائب بملايين ، يا حسرة ! .

ومن غريب الأمر أن أولئك المحتلين لأرصفة البلد وشوارعها يتكاثرون بسرعة هائلة كأنهم أرانب ، ومهما زادت أرباحهم فإن منظرهم وشكلهم الاجتماعى لا يتحسن قط ، فلا هم يتركون أرض الشارع ويسكنون فى مسكن محترم ، ولا هم يلبسون ثوبا نظيفا أبدا ، يكسبون أضعاف ما نكسب وينفقون كل ما يكسبون فيما يضر : الدخان والشاى والقهوة والنساء ، وما هو أسوأ من الدخان والنساء ، ويندر أن يرحم أحدهم امرأته أو أولاده فيكسوهم أو يحسن غذاءهم . لأن هذا المظهر الفقير العليان هو رأس ماله الذى يتاجر فيه .

□ □ □

ولو اتسع مقام هذا المقال لأتيت بالمقال بعد المقال مما يثبت كيف ملك أولئك الناس أرض الشارع ، وجعلوه ملكا خاصا يتصرفون فيه ، بل يبيعونه ويؤجرونه . ففى هذا البلد الذى يدفع الناس فيه ألوف الجنيهات لكى يؤجروا دكانا مساحته متر فى متر ، تجد امرأة فى حى السيدة زينب وضعت يدها على نصف شارع : الرصيف ونصف الطريق ، وأحاطت ما ملكت بسياج وأطلقت فيه الدجاج .

فهى تأجر دواجن لها شأن ومال . وفى خدمتها « شحوط » ثلاثة يحرسون دجاج « المعلمة » ويبيعون للناس . و « المعلمة » هناك على ناصية الشارع وقد اتخذت لها مجلسا ترقب منه عوالمها ودجاجاتها ، ولا تزال تخرج حافظة نقودها الضخمة وتدخلها ، وهى تدخن السجائر الرجالية ، وتتسامر مع أمثالها من المعلمين . وهذه الإنسانة التى صنعت وترهلت حتى أصبحت كأنها بيت من بيوت الشارع ، أصبحت أقوى وأغنى امرأة هناك ، فإن مالها كثير ، وقد تزوجت وأنجبت دستة من العيال ، وأحالت الشارع إلى مزبلة ، وهى لا تدفع مليما « ضريبة » أو « نظافة » فضلا عن « الدفاع » و « الجهاد » وغير ذلك مما يؤديه عنها المساكين حقا ممن يعملون ويكسبون وينفقون فى التمس والمأكل وتربية الأولاد ، ويخدمون هذا البلد ويعطونه منظرا ورونقا .

وفى ميدان صغير من ميادين شارع الجيش احتل رجل وأولاده الشارع كله بعربات وأقفاص عليها خضر وفاكهة وبولوفرات وقمصان وأمشاط وزرائر وكل شىء . والرجل وأولاده يبيعون ويشترون أضعاف ما يباع ويشترى فى متجر كبير . وقد أحاطوا معظم الميدان بحصير بالية ولم يتركوا للمرور إلا ممرين لا يتعداهما إنسان أو سيارة . وحلف هذا السياج يعيش بعض أولاد الرجل وقد تزوجوا وفرشوا المراتب وأتوا بموابير الجاز والخلق ، وأدخلوا الكهرباء فى مسكنهم هذا من عداد مسجد فى الميدان . وهم لا يدفعون شيئا فى الكهرباء لأنهم يسرقون مال الله ولا يبالون .

وبلغ من جرأة هذا الرجل وأولاده أنه حج إلى بيت الله فى عامين ، وتصور أنه تفضل عن نفسه ذنوبه ، ثم عاد حاجا محترما ليواصل سرقة مال الناس ومال الله ، والناس جميعا يعلمون من أمره ما قصصت ، ولكن أحدا لا يتكلم . لأنه لم يعتد على أحد ، وكل ما فعله هو وأولاده أنهم سرقوا أرض الشارع ، والشارع لا صاحب له .

وهناك من هذا الطراز مئات ، وربما ألوف .

□ □ □

بل المسئولون أنفسهم يساهمون فى العدوان على الشارع المصرى . فهم يبيعون حق استعمال الرصيف لمئات من الناس ، ويتقاضون إيجاراً عن أكشاك تقام لتباع فيها السجائر والحلوى والمرطبات . وهم يحسبون أنهم يحققون للدولة بذلك إيرادا ويفتحون لمؤجرى هذه الأكشاك أبوابا للرزق .

وكلا الأمرين خطأ ، فإن الإيراد الذى يعود على الدولة من وراء هذه الأكشاك ضئيل جدا ، ثم إنها تضر الشارع ضررا شديدا ، فهى تحرم الناس حق المرور على الأرصفة وتعرضهم للخطر ، وتشوه الشارع ، وتتفق الدولة فى تنظيف ما تخلفه هذه الأكشاك من قمامات أضعاف ما تجنيه من ورائها من الربح . ثم إن الذى يكترى هذا الكشك لا يقتصر عليه قط ، بل يأخذ مساحات أخرى أكبر منه على يمينه ويساره . أما تصورنا أن الذين يؤجرون هذه الأكشاك يحصلون بذلك على مورد رزقهم فى أشد الحاجة إليه فغير صحيح ، لأن الذين يؤجرون هذه الأكشاك جميعا ناس مقتدرون وهم يتاجرون فيها وبها ، وبعضهم يأخذ فى الكشك الصغير عشرين أو ثلاثين ألف جنيه على طول رجل . ثم إنهم يستخدمون هذه الأكشاك لتجارات واسعة بعضها مخالف للقانون .

ثم إن الشارع ملك للناس جميعا وليس ملك المسئولين ، وأى كشك يقام على الرصيف فيه عدوان على الناس وتشويه للشوارع البلد وتضييق لها . حتى أكشاك بيع الخبز أو الخضر أو السمك التى تقام على الأرصفة تعتبر عدوانا على حقوق المارة ، لأنها ترغمهم وترغم أولادهم الصغار على النزول إلى عرض الشارع والتعرض للخطر ، وحبر لنا ألف مرة أن نتعب فى الحصول على الخبز من البقالين من أن نتعرض نحن وأولادنا للخطر .

□ □ □

ومعنى هذا أننا جميعا – مسئولين وغير مسئولين – نعتدى على شوارع المدن وخاصة القاهرة ، وكل ذلك ناشىء من أننا لا نعرف أهمية الشارع ووظيفته .

وهذه المقالات نحن لا نكتبها لبيان عيوب ، إنما لتوضيح حقائق وفتح أذهان وتنبيه على مجهول ، وتلك فيما نحسب وظيفة الكاتب وصاحب الرأى والقلم . ومن واجبنا أن نقول إن السلطة التى تتصرف فى الشارع فتؤجر بعضه أو تنشىء أكشاكا على بعضه ، إنما تضر أكثر بكثير مما تنفع ، ثم إنها تتصرف فى مرفق هام ليس لها حق التصرف فيه ، وإنه لمن العجب أن نعلم أولادنا فى المدارس ونقول لهم : لا تمشوا إلا على الرصيف ، فإذا خرجوا إلى الطرق لم يجدوا الرصيف ، فلا تكون لهم متنوحة فى هذه الحالة من السير بين السيارات ، وليست هناك سلطة شرعية لها الحق فى أن ترغم الصغار على التعرض لأخطار السيارات .

ثم إن الشارع فيما يرى المتخصصون فى شئون المدن وعلى رأسهم لويس ممفورد : هو حياة المدينة ، بل هو المدينة نفسها .

ويحسب البعض أن المدينة مجموعات من المساكن تسير بينها الطرق ، وهذا خطأ ، لأن الحقيقة أن المدينة طرق أولا ثم تكون المبانى بعد ذلك .

هذا هو المفهوم الحديث الصحيح للمدينة ، فإننا نستطيع أن نتصور مدينة من الطرق المهيأة بكل مرافق المدن ولا نقوم على جوانبها إلا مساكن قليلة ، ولا نستطيع أن نتصور مدينة هى كتلة من المساكن ليس بينها إلا أزقة وحوار ضيقة .

المدينة المساكن المتراكمة والأزقة المختنقة هى مدينة الماضى ، ومدينة الماضى – إلى نهاية العصور الوسطى – كانت حصنا وملجأ يدور حوله سور ، أما مدينة الحاضر فمركز أعمال ، والحركة وسهولتها هى الشرط الأساسى لقيام الأعمال ، وهنا نفهم كيف إن الشوارع فى المدينة أهم من المساكن . والذين يخططون للمدن اليوم يبدأون أولا برسم الشوارع والميادين لأنهم يريدون مدينة حركة واسعة الشرايين ، متوسط عرض الشارع فى المدن الجديدة ١٥٠ مترا ، والعالية يجعلون العرض ٢٠٠ متر حتى لا تصاب المدينة بتصلب الشرايين أبدا ، وهم ينشئون الموانى كلها فى سحارات ضخمة من الحديد والمسلح . سحات ارتفاعها وعرضها أربعة أمتار ، وهناك توضع كل أنابيب المياه والكهرباء والغاز ، والعمال والفنيون يهبطون فيها ويعيشون كأنهم فى شوارع لكى يستطيعوا الإصلاح والتجديد . إنهم أيضا ينشئون سحارات المترو وأنفاقه ، ثم يغطون ذلك كله وينشئون الشارع إنشاء صلبا جدا ، ثم بعد ذلك تكون المساكن والمبانى .

من يملك الشارع.. ؟!

وليس هذا التفكير جديدا ، إنما هو قديم يرجع إلى النصف الثانى من القرن الماضى ، وأول من ابتكره مهندسان فرنسيان هما الأخوان اوسمان أو هوسمان . وباسمها يسمى الآن شارع من أكبر شوارع باريس هو بوليفار أوسمان .

كانت باريس إذ ذاك مدينة صغيرة تنحصر فى الحى اللاتينى وشارع الجمهورية (لاريبوبليك) والشان دى مارس والايل دى فرانس وامتدادها حتى حدائق اللوفر ، وقصور التويلرى .

وكان لابد من إنشاء باريس جديدة ، مدينة أعمال ، لأن عصر الصناعة والتجارة الكبيرة كان قد بدأ فى أوروبا كلها .

وخطط الأخوان أوسمان المدينة الجديدة على نطاق واسع يحتمل تقدم المدينة وتطور الأعمال فى فرنسا كلها لمدة قرن كامل من الزمان .

وكان تخطيط حى الأنوال بميدانه الشاسع والطرق (الأفنيوهات) الستة عشر التى تتفرع منه ، ومنها الشانزليزيه وحدائق الأليزيه وعرضه ٢٠٠ متر وميدان الكونكورد ومساحته ستة أفدنة .

يومها قيل إن البارون أوسمان وأعاه كانا مجنونين ، ثم تبين أنهما أعظم العقلاء ، فإن الشوارع الواسعة والميادين الشاسعة والحدائق والأشجار والمرافق المخططة على نطاق واسع هى التى تصنع المدن الحديثة ، مدن الحركة والأعمال والتجارة والمال والوكالات ومكاتب الشركات والبنوك والفنادق . فى أواخر القرن الماضى وضعت رسومات خطوط مترو باريس . وضعوها وأنشأوا الأنفاق قبل أن تبنى المبانى . بعد أن تم كل شىء وضعوا للشوارع نماذج محددة للمبانى . ولا تمكن مخالفة أية قاعدة من قواعد البناء . لابد من ذلك لكى يكون للمدينة طابع واحد .

وكانت فلسفة الأخوين أوسمان فى إنشاء المدن هى القاعدة التى اتبعت فى إنشاء برلين وروما وطوكيو وكل مدن الأعمال الجديدة . هذه كلها مدن أعمال وحركة . وهم لا يضحون قط بسهولة المرور فى شوارعها لكى يتيحوا الفرصة لبائع بطاطا لكى يسترزق بعربة على ناصية الشارع . نعم قد توجد هناك عربات ولكن مواضعها مقدرة بحساب ، ويشترط فيها عدم الدوام ، ثم إنها لابد أن تكون فى غاية النظافة .

ولولا أن باريس مدينة صالحة للأعمال ومراكز التجارة والصناعة لما استطاعت فرنسا أن تكون مركزا صناعيا تجاريا عظيما ورئيسيا فى هذه الدنيا ، لأن الأعمال تحتاج إلى مراكز ومكاتب ومواصلات سهلة فوق الأرض وتحت الأرض وتليفون وتلغراف وتليكس . ولا مكان فيها قط لا مرأة ترش دواجن فى الشارع . ولا لإنسان يدفع عشرين جنيها ليشترى رصيف شارع .

هل تعلم مثلا أن فى القاهرة ناسا صناعتهم عمل مراجيح للأولاد ، وهم يؤجرون المرجيحة بجنيين فى اليوم . والذى يستأجرها ينصبها فى أى مكان ؟ . .

إنه يحتل نصف الشارع ، وينبغى على كل سائر بسيارة أن يحرص على ألا يمس قوائم المرجيحة ، والأطفال يتمرجحون والمرور معطل لأن رجلا بطاقية وجلباب بلون الأرض دفع جنيين إيجارا لمرجيحة ، ولابد أن يستخرج منها خمسة جنيهات فى اليوم يدفع منها الإيجار ويحتفظ بالباقى لا ليغطى به على عياله ، بل ليغطى على الكيف والمزاج .

هل هذا كلام يا ناس ؟ .

وهل هذا ذنب هذا الرجل ؟ .

لا والله . . ما هو بذنبه ، فهو رجل جاهل يريد أن يستخرج المال من أى طريق ، وليست لديه فكرة لا عن القاهرة ولا صالح الوطن ، ونحن لا ننبه ولا ننور عقله ، إنما نحن نتركه يتفاهم مع الشاويش . والشاويش يتركه ينصب المرجيحه و « شيلى واتا اشيلك » و « أهى ماشية » .

□ □ □

لا والله ما هى ماشية .

والقاهرة أعز على الله وعلينا وعلى الدنيا من أن نقتلها لكى يعيش بائع متجول . ونهضتنا هذه والانفتاح الذى نسير فيه يحتلى ثانية . . فى حاجة إلى مدينة أعمال أو « سيتى » كما يقال ، والأعمال لا تتعشش قط فى مدينة مصابة بضيق الشرايين ، ورجال الأعمال لا يستطيعون العمل فى مدينة بلا شوارع ولا أرصفة ولا مواقف سيارات ولا تليفونات تعمل بانتظام .

رجل الأعمال يريد أن يتصل من غرفة فندقه بلندن ونيويورك وطوكيو ، ويريد أن يتنقل بحرية وسرعة ودقة من مكان لمكان ، وكيف يستطيع ذلك وهو يحتاج إلى نصف ساعة لكى يقطع المسافة من الفندق إلى شارع طلعت حرب ؟

وما الذى نفعله ؟ . .

الجواب فى ثلاث كلمات : كما يفعل غيرنا .

المحافظة الكاملة على الشوارع وأرصفتها ، وخطة مرور سليمة توضع بإحكام ، ويشرف على تنفيذها ضباط مرور من مستوى رفيع . . هل رأيت رجال المرور فى لندن وباريس وطوكيو ونيويورك . . ؟ تريد هذا الطراز من الرجال .

ومادامت القاهرة مدينة عالمية فينبغى أن توضع مصائرها بأيدى رجال ذوى عقلية عالمية . .

إن القاهرة هى « السيتى » هى مركز الأعمال ، هى دينامو هذا البلد ، هى قلبه وشرايينه ، ولابد أن نشفيها أولا من تصلب الشرايين .

لابد أن تتخلص القاهرة من حمل العاطلين والمتسكعين والمرتزقين الباهظ لكى تتحرك القاهرة بسرعة وخفة وتقوم بمسئولياتها . أما فتح أبواب الرزق المطلوب ولكن لا على حساب القاهرة ، ولا على حساب مصر ومستقبل مصر .

والشارع لا ينبغى أن يكون قط ملكا للمرتزقين والمتسولين ، والذين يشرفون على الشارع لابد أن يكونوا سكان الشارع ، لأن رجال الدولة لا يستطيعون أن يعملوا كل شىء ، ولكل طاقة حدود ، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها .

ولكل هذا حديث طويل نقوله إذا وجدنا من يسمع ، أما إذا لم يكن هناك من يسمع فما فائدة الكلام ؟ . .

□